الفصل الاول بتحديد اطراف الصراع وهي « الحركة الوطنية الفلسطينية ، تعضدها الجماهير الفلسطينية العريقة ، والجماهير العربية العريقة من جهة ، والحركة الصهيونية يدعمها الاستعمار البريطاني ثم الامبريالية الامريكية وكل الاوساط الاستعمارية الغربية ، ما عدا المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية في السنوات (٣٣ — ٤٥) . وتدعمها ايضا كل جماهير اليهود في فلسطين ، وقطاعات واسعة من جماهير اليهود في العالم » (ص ٦٠) . أما طبيعة الصراع « صدام بين الاستعمار السياسي العسكري الاستيطاني من جهة وبين ارادة التحرر والاستقلال والمحافظة على الوطن من جهة اخرى. ولقد فرضت طبيعة الجاليات الصهيونية ان يكون الصدام شاملا » (ص ٦٣) .

ويستمد الكتاب اسسه من الفصل الثاني والاساسي فيسعى الى معرفة تطور وعي الحركة الوطنية تجاه الاستعمار الصهيوني وعلاقته بالامبريالية . فبعد سرد الملامح العامة للفترات الثلاث وهي قبل مؤتمر بال ، قبل وعد بلفور (١٨٩٧ — ١٩١٦) وحتى آخر عهد الانتداب (١٩١٧ — ١٩٤٨) ، ينطلق الباحث في تتبع تطور الوعي الوطني من خلال مواقف الزعماء والتنظيمات المركزية والمحلية . فيستنتج خلال عرض المواقف في المرحلة الاولى ان الزعامة الوطنية رفعت منذ تلك الحقبة شعار « منع الهجرة وتحريم استملاك الاراضي » وسيظل هذان الشعاران مرفوعين حتى ١٩٤٧ . وبدأ الشعب يدرك الخطر الذي يهدد وجوده متأكدا من تصرفات المهاجرين اليهود العليائية والاستفزازية . ووجد الاعلان التأسيسي للحركة الصهيونية اثر مؤتمر بال ١٨٩٧ صداه في فلسطين ، فبدأت حركة احتجاج ورفع عرائض ضد سياسة الاستيطان الصهيوني . ومع صدور مجلة الكرمل في حيفا عام ١٩٠٨ بدأ نشاط عربي مكثف ضد الاطماع الصهيونية . ثم تلتها جريدتا « فلسطين » في يافا و« الاقدام » في القاهرة ، مما دعا الصحافة العربية عامة للاهتمام بالموضوع . وظهرت بعض الدراسات عن الحركة الصهيونية وأطماعها . ويستخلص المؤلف من موقف الحركة الوطنية الفلسطينية في المرحلة الثانية « ان ما يبدو واضحا هو قدرة الجماهير ، ممثلة بالصحافة والادب وممثلي الشعب ووجهائه وابنائه العاديين ، حتى بدو بيسان، على ادراك خطورة الحركة الصهيونية على الوطن » (ص ١١٢) ، مما دعا الحركة الوطنية الى تصور عمل متعدد الاوجه لمجابهة هذا الخطر ويدخل ضمن هذا العمل الضغط على السلطة واستعمال العنف أحيانا « ... لاجبار السلطة على اتخاذ القرارات او لرفض التراجع على الحركة الصهيونية . هذا جانب . أما الجانب الاخر فهو محاربة الذين يسهلون الهجرة ويساعدون على بيع الاراضي ، وتعبئة الشعب سياسيا واقتصاديا وتنظيميا ليتمكن من عملية المواجهة » . ومنذ تلك الفترة جرى تمييز بين الصهيونية واليهودية .

اتبعت الزعامة الوطنية هذا الخط بعد الحرب العالمية الاولى جاعلة الصهيونية العدو الاساسي والاوحد ، ساعية الى تحييد دولة الانتداب . بينما كانت الجماهير تلمس يوميا حجم التشجيع البريطاني لبناء الوطن القومي . ووجهت هذه الجماهير قسطا من ضرباتها نحو الوجود البريطاني خلال انتفاضة عام ١٩٢٩ . وعندما أدركت الزعامة الوطنية التقليدية كره الجماهير للاستعمار البريطاني بدأت تحاربه بدورها مطالبة بالاستقلال ، الا أنها ظلت تطمح لتحييد دولة الانتداب واغرائها بعقد اتفاق معها بعد الاستقلال .

ومع ازدياد الهجرة وتهويد العمل وتشريد الفلاحين تصاعدت حدة التناقض مع الصهيونية بحيث أصبح مستحيلا ازالته سلميا . ويورد المؤلف مثلين لاستحالة ازالة التناقض بين عرب فلسطين والصهاينة . المثل الاول تجربة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي احتوى في البدء أكثرية يهودية واقلية عربية ولكنه ما لبث ان استعرب نتيجة التصاق قسم كبير من الاعضاء اليهود بفكرة الاستعمار الصهيوني ، ونبذ قسم آخر لهذا الوجود وتفضيل الرحيل عن فلسطين . واتضح للاكثرية العربية عام ١٩٤٣ استحالة التعاون مع الاقلية اليهودية ضمن الحزب فاختارت تأسيس حركة جديدة وهي « عصبة العمل القومي » .

وجاء المثل الاخر مع مسعى « جمعية عهد السلام» المؤسسة عام ١٩٢٥ من قبل بعض المفكرين اليهود ، التي طرحت فكرة « ان فلسطين يجب الا تكون دولة عربية او يهودية ولكن دولة ثنائية القومية ... » . قوبلت هذه الجمعية بعداء شديد من الصهيونية مما دعا افرادها للتخلي عن الفكرة .